المعجزة ...

قصة بقلم هاني الراهب

في بلدتنا المتوسطة الحجم الغاصة بالسكان ، حيث الشوارع نظيفة وغير نظيفة ، والبنايات عالية وغير عالية والنوافذ مفتوحة ومغلقة ، وحيث تدرج النساء وحيدات او مع الرجال ، لابسات ثيابا قصارا حتى الرضف او متحجبات، وحيث يجلس الرجال في المقاهي كسالى ونشيطين ، يخلدون الى قرقرة نراجيلهم وتلوي احاديثهم او يلعبون النرد والشطرنج والضامة والدومنة والورق ، وحيث يطارد الشباب البنات فيهربن متمنيات ان تزداد المطاردة ، وحيث يضرب كل فرد منا في مناكب الارض ساعيا الى كسب رزقه بطرائق مشروعة وغير مشروعة ،في بلدتنا هذه تشرق الشمس في الصباح وتغرب في المساء ، وتنبت الطبيعة وتثمر ، وكما يحدث في كل بلد على سطح الارض تظهر النجوم في غيهب السماء وتتعاقب الفصول ويسطر علم الفلك حقائقه الازلية الثابتة على كواكبنا .

وفي بلدتنا ايضا يندر ان يحدث امر خطير ، اذا استثنينا الموت والفضائح والاعياد وتعيينات الموظفين . وكذلك فان حياتنا الشخصية مطمئنة ، وليس فيها ما يدعو لابعد من التعليقات . وان العلاقات الاجتماعية زاهية وجيدة . أما الحياة العامة فمثل صنابير مياه البلدة تفتح عند الضرورة وتغلق عند الضرورة ، باستثناء انها لا تنفجر البتة .

ونحن مهذبون تقريبا،وقليلو الاكتراث بالحوادث العادية الطارئة. وقد حدث ان صدم احدنا شاب يسير مطرقا فلم يتضايق ولم يستغرب. وكذلك لم يستغرب احد الحادثة عندما رويت . ولم يحدث شيء عندما تبين ان الشاب غريب وانه يختلف الى البلدة بين حين وحين.

الا ان البلدة لم تلبث ان شذت عن تلك اللامبالاة التقليدية فألفت من ذلك الغريب قدومه في اوقات كثيرة غير محدودة . ولم يدر احد كيف برز اهتمامهم به وهو يجوس خلال الطرقات باسماله التي لاتكاد تستره وببنيانه الرياضي المتين ، حاملا بين يديه طعاما سيئا ومصفرا بصورة مبتذلة . لقد رووا عن تردده الى مقالع الحجارة حيث وجد عملا . « وكان يزداد البناء في بلدتنا باستمرار بسبب التكاثر وارتفاع مستوى العيش وتنوع الحياة . » وعجبوا من صمته التام وسكناه في العراء ومن عينيه الحادتين .ومع تقدم الزمن تحول احساسهم العائم به الى مزيج من شعوري الازدراء والشفقة . ذلك ان ثيابه الرثة لم تكن تدفع الى الاحترام، وحياته الوعرة كانت تثير حفيظتنا كانه يسرق وجوده بيننا سرقة ، ولم نستطع بالمقابل ان نهمله بسبب من حيويته ومفارقاته وحبه الشديد للمتناقضات . وانه بهذه السيرة العجيبة والاسلوب الغريب طفا فوق نهر المدينة واستأثر بالاهتمام.

قالوا انه لم يكن له صديق . ولا صديقة . وسرهم ان لهم اصدقاء . وكان ينام في خربة مهجورة عند حدود البلدة فاستخفوا به. وكثيرا ما شوهد في الليالي الطويلة يسري كالمجانين بين شوارع المدينة ، لا يأخذه برد ولا خوف ، فمنحوه اعجابهم الهازيء . وكان يتامل المباني ويقرأ اللافتات كانه يجد في كل ذلك شيئا غريبا او جديدا او مسليا . كان يقف فيتامل شباكا معينا زمنا يكفي لسلق دجاجة ، ثم يولج يديه في جيبه ويمضي مصفرا بطريقته المبتذلة .وربما وقف عن كثب يراقب امرأة برز نصفها الاعلى من الشباك ، وهو لا ينبس ولا يريم حتى ليستعصي الظن بانه يقصد شيئا بعينه . واستهجنوا منه كل ذلك . انه على غرة ، كان يزحف من جديد على رصيف الشارع مطلقا صفيره المعروف ، الصوت الوحيد الصادر عنه . وقالت البلدة ان هذا مبتذل منه . وانصرفت الى تمجيد تمسكها بالاداب والتهذيب العريقين في حياتها ، واحست بالفخر ازاء كل الاشياء التي تمتلكها وتعيشها . ان بلدتنا ارث عظيم فذ من تعب الانسان في صراعه مع ظروفه وقصوره الشخصي وانتصاره عليهما . وقد وجدت في القادم الغريب مادة للتسلية . وهكذا رووا انه كان يلتقي بالحارس الليلي ، حتى اذا سلما باحترام تجاذبا اطراف الحديث. وقيل انهما كانا يجلسان ـ الحارس على كرسيه وهو على الارض ـ فيتجاذبان اواسط الحديث ولبابه بهدوء وسكينة . ولقد اعجب به الحارس ،ايما اعجاب لانه اطرى مهنته وامتدح صبره على السهر بلغة عذبة رقيقة ، ولانه ايضا صافي السريرة غامض وسهل الاثارة كطفل شكيم . ولقد قال للحارس ذات ليلة انه ـ اي الحارس ـ يعيش حياة حقيقية اكثر من اي حي اخر على جبين الارض باستثناء الحراس ، وانه يعيشها في اصفى حالاتها بعيدا عما تحفل به الحياة اليومية من الصخب والمماحكة والبهتان . « عصر الحارس ذهنه طويلا قبل ان يستطيع استحضار الكلمات الثلاث الاخيرات »

وبمرور الزمن صارت البلدة تعرف الغريب معرفة تامة . « كان اسمه اسيان بن الضحاك ، وكنا نناديه باسمه الاولي فقط » . وحل الاستخفاف في مزيج شعورنا نحوه محل الازدراء . ولم نكف عن اعمالنا اليومية بالطبع . لكننا استمعنا الى طرفاته وطرائفه بمرح وسرور . « كان على الرغم من ثقل دمه يجيد النكتة » . على ان حاله لم يبق رضيا كما كان مع الحارس الليلي ، فقد اختصم مع السمان ، ولذلك قصة طريفة .

اننا عندما نشتري وزنا من السكر لا نلاحظ جيدا ان السمان يحاور الوزن ويداوره قبل ان يوصل منقاري الميزان الى خط افقي واحد . ومن المعروف اننا نتناول قمع الورق برصانة ثم نهرع الى البيت حيث ابريق الشاي الغالي . والذي حدث ان اسيان هذا ـ على عادته في المبالطة وحب المناقشة ـ سال السمان بعد ان هم برفع القمع والانطلاق ، ان يضع مزيدا من السكر تعوض عن وزن القمع نفسه . « ولم يكن شراء السكر يحدث للمرة الاولى ـ وقد استغرب سكان البلدة ذلك كثيرا ـ فقد اشترى اسيان من قبل كثيرا،ولكنها نزوة عجيبة مفاجئة مثله ومثل حياته » واعتبر السمان هذا الطلب غير وارد ، فالجميع ياخذون السكر بهذا الاعتبار . ولكن اسيان شرح له ان هذه العادة لا تبرر وجودها بمجرد استمرارها ، وان الثمن الذي يدفع هو لقاء وزن معين من السكر لا يدخل فيه وزن القمع. واعقب ذلك قوله ان اللوائح الاخلاقية والدينية والاجتماعية تامر بايفاء الكيل وانصاف الوزن و .. الخ .. مذكرا السمان بما سيلاقيه يوم القيامة من غضب الاله وتنكيله به وقذفه له في سرادقات النار مسعور الوجه محروق العينين . وقال الذين رووا الخبر من الحاضرين انه قد ارعب السمان وارتج عليه بلغته المتدفقة وعباراته المفزعة عن يوم الحشر الرهيب وجهنم الحمراء القانية. ولما افاق السمان على نفسه صاح مبغوتا ان خذ يا اخي نقودك ولا تشتر سكري. ولكنه ما لبث ان صعق من جديد عندما بين له اسيان رفضه التام لذلك بقوله انهما انما يهربان من مواجهة الامر مواجهة

رجال . وأفاض في تركيزه على ضرورة ان يحاكم السمان شخصيا كل قضية صغيرة من هذا النوع.وقال ان السمان في حاجة قصوى الى معجزة لتنقذ روحه . ثم سأله سؤالا مخيفا وهو : ألست تؤمن بالله ؟ واجاب السمان منفتل الذهن انه يؤمن به حقا، ثم زمجر مطالبا برد اعتباره . ولكن اسيان طالبه بان يجيب على السؤال عندما ينفرد على وسادته في اخر الليل . وفجأة انتبه الى انه قد حاصر هذا الرجل حتى افلتت اعنة اعصابه . ووجم كأنه شعر باسف عميق او كما اكد اخرون ، كانه خاف من الرفس والركل ، وهو يعرف جيدا انه لا يميل اليهما . وهنا - يروون - رقت لهجته وشرح للسمان بايجاز وقوة ان كل الناس يمتهنون هذه القضايا الصغيرة ويمرون بها مرورا عابرا ، وانه لا بأس . ثم اخذ القمع ومضى ، وروى الذين حضروا المهاترة ان السمان ابتسم بعد ذلك متبجحا وقال : هه ! ضحكت عليه ! فبعد كل شيء اخذ القمع ومضى .

فأفأ الناس طويلا حول الحادثة ، وعلقوا باستخفاف معجب على براعة اسيان في تناوله لاعصاب السمان . وبلغ التندر والحديث حدا جعل السمان وكل السمانة يشعرون بالغيظ العميق من اسيان ويجمعون على تحاشيه ،حتى اذا ورد اسمه امام اذانهم قفز الغيظ الى جباههم وادارو وجوههم . وكذلك تندر الناس بهذه القضايا «الصغيرة» وبعدم انتباههم لها سابقا . « لم ينتبهوا لها لاحقا ، فالامر لم يتجاوز مستوى النكتة ».

وسمن رصيد اسيان في البلدة.وصار الاهلون يتلقونه هاشين باشين فيقابلهم بشكران وامتنان ، معلنا بابتسامة غامضة ان ذلك كان تهويمة رومانتيكية . وتضخم اقبال الناس على سماعه كعادتهم في محاولاتهم الدائمة لتلوين حياتهم بالطرافة والبهجة . وهكذا صاروا يحيونه في الطريق ويمزحون معه ، ويطلبون مباراته في العاب المقهى . ووجهت له دعوات كثيرة واقيمت له احتفالات كريمة . ودخل البيوت التي كان يتاملها في الليالي والسكون،فضج اهلها استمتاعا بوجوده وتشنيعا عليه ، وسروا حتى من خلال مناصبته العداء مناصبة لم يكونوا يبردونها بل يعيشونها . وكانت اخر تلك الدعوات دعوة وجهها مرزوق بك حاتمي « صاحب مقلعين للحجارة ومعصرة زيتون وثلاث مطاحن » وقد طلب هو دائما - بعدم الاكثرات والبرود اللذين ظهرا عليه تلقاء هذه الدعوات - ان يسمح له بالحضور مرتديا اطماره البالية وخفيه الهرمين ، متعللا بانه قرر ان يعيش الى اجل غير مسمى اقرب ما يكون الى العري ، فلا يحول اي حائل دون ذلك.على انه وعد بان يحضر نظيفا في كل ما يملكه :جسمه وهذه الاطمار .

ولقد كانت دعوة الوجيه مرزوق اخر هذه الدعوات لان شيئا لم يكن متوقعا حدث فيها فانقلب كل شيء اخر راسا على عقب .

فقد توجه اسيان عشية يوم سبت نحو بيت الوجيه وهو يصفر صفيره المبتذل المالوف ، ويتامل النوافذ والبيوت والحوانيت وامتدادها الملتحم حول جوانب الطرقات ، وكذلك النساء العابرات فرادى او مجتمعات لابسات ثيابا زاهية وبسيطة وقصيرة وانيقة وشديدة الالتصاق باللحم في بعض المواضع ، ويتامل ايضا الاطفال اللاعبين على الارصفة والازقة في صخبهم وشجارهم ، ويحيي رفاقه حتى وصل .

ويروي الذين سمعوا ما حدث بعد ذلك من افواه الخدم ، والخدم انفسهم ، مزوقين الحكايا وسادين الثغرات بتوليد خيالهم ، ان اسيان ابن الضحاك قد اكتسب فورا ليس فقط ود الجميع بل سعيهم المعجب حوله وتحرشهم به ان يقص لهم الحكايا والنوادر . وقد تباسط الجميع معه بلا تحفظ . حتى ان ابنة الوجيه شدته من ذقنه ، وهي الحسناء البالغة من العمر ثمانية عشر عاما . وتمادت فسالته عما اذا كان قد رآها واين ، فأجاب بدقة بالغة مدهشة انه رآها يوم كذا في الساعة كذا في الشارع كذا تمر تحت مستطيل اشرطة الكهرباء المكتوب عليه« بحتري » . وازرق وجه الفتاة لدى سماعها هذا الخبر، ولاحظ اسيان على وجه ابيها شيئا . الا انه استمر غير حافل بذلك . وتحدث حديثه العذب واورد ملاحظاته الغريبة المسلية .ومضت السهرة في مرح ونشاط بفضل روح الدعابة الذي انتشر من اسيان على البيت باكمله . ولكن شيئا لم يكن في الحسبان حدث .

لقد ظهر ان اسيان صاحب نزوة عجيبة . وانه احيانا - كما حدث مع السمان بالضبط-يباغت الحضور بسلوك او سؤال او شيء من نوعهما مستهجن وغير متوقع . ففي غمرة الضحك ، التفت الى الوجيه مرزوق وسأله سؤالا مفاجئا : « هل انت سعيد في حياتك ؟ » وماما الوجيه مضطربا ضاحكا :« الست ترى بعينيك ؟ » ورد اسيان بثقالة وبلا ابتسام بانه لا يرى بعينيه شيئا . وبغير توقع على الاطلاق تدفق يقول للوجيه انه - اي الوجيه -يملك نفسا مثل القبو وانه يشعر بانفصال مروع عن زوجته وولديه وابنته ، وانه لا يدرك او لا يجرؤ على ان يدرك الرابطة والعلاقة اللتين بينهم، ذلك ان كلا منهم مفروض على الباقين ويعرف انه كذلك ، ويائس من جدوى وجودهم ويعرف انه كذلك ، وعاجز عن الاعتراف بانعزاله في عالم لا يدخله من افراد اسرته غير ظلال خفيفة او تصرفات تثير الغيظ العميق ويعرف انه كذلك . وان نقوش المثل والقيم التي زوق بها ضمير ابنته قد تساقطت والدليل هو « انبحتري » وان تاثيره الابوي على ولديه مات وان الولدين موبوءان بالعقوق والبطالة وعقدة أوديب . وان زوجه لا تذكر منه سوى انه الرجل الذي اقتض بكارتها قبل ثمانية وعشرين عاما واصبح قواما عليها . .الخ ..

وبلغ من دهشة الجميع وترويعهم ان الخدم - الذين سمح لهم الوجيه بالحضور تكرما - قد انسحبوا بالتدريج حتى لم يبق سوى الرئيس الذي انزوى في زاوية القاعة .

ولم يقف اسيان عند ذلك الحد ، بل انه تنهد بحزن واخذ يردد كانه يحدث نفسه ان الوجيه ،وكل وجيه وغير وجيه ، يعتقد ان بيته

في الاسواق :

قضايا الشعر المعاصر

بقلم

نازك الملائكة

اوفى دراسة
وأعمقها في مشكلات الشعر
العربي الحديث

منشورات دار « الآداب » الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

بثلاثين جدارا وثمانية سقوف مفروشا بالاثاث الجيد مضاء بالكهرباء مزودا بالماء والراديو والتلفزيون والكتب والاسطوانات والمشروبات والخدم والاولاد والزوجة يستطيع ان يمنع الحزن او يخفي التذمراويميت الغيظ او اي يوفي جميع الضرائب التي تفرضها حياتنا ، او ان ينعزل عن التعب والمماحكة والضجيج التي تتوفر بكثرة في شوارع البلدة.. وانه تساءل بحميا لماذا لا نعيش في العراء ، نعري ونتعرى حتى نكتشف الحقيقة العارية وهي اننا عاجزون عن كل شيء الا صلب السيد المسيح .. وانه نهض بعد ذلك فجمع بعض الفاكهة في جيوبه وحمل زجاجة نبيذ فرنسيوهو يتمتم « انك في امس الحاجة الى معجزة لتنقذ روحك » .وانطلق خارجا . وقد روى الحارس الليلي بعدئذ انه في حوالي الثالثة من ليل ذلك اليوم تذوق نبيذا لذيذا،ثم سار مع اسيان حتى مسكنه وهما يغنيان « ياليل ياعين » .

وهكذا فقد اسيان سمعته دفعة واحدة . وقد كان ممكنا ان يسمح له الاخرون لو انه لم يتحدث الا عن الوجيه مرزوق .ولكنمن كان يصدق انه بعدالتاملات الطويلة للشوارع والبيوت والشبابيك سوف تخرج منه تلك العبارات . وصرنا نعتبره مجنونا او فيلسوفا « والبلدة ليست في حاجة الىايمنهما » موتورا من استقرار الحياة الاجتماعية وثباتها ، هو المنسرد الهائم الذي لا يعرف عنه غير اسمه المضحك . وكان كلامه عن الجدران والسقوف تعبيرا عن حسده لكل صاحب بيت ، ليس هذا فقط، بل ان حملته الدائمة تؤكد ذلك. واعتبر حديثه عن السيد المسيح رجما احمق لعواطفنا نحو الرب. وقوبل بغيظ شديد . لكننا اضطررنا لان نعتبر ذلك الحديث افرازات عقل مصاب ، وان نزواته في الحقيقة نوبات جنون مفاجئة. ومن يدري فلعل ثمة شيئا اسمه « الجنون الدوري » قلنا لانفسنا. وعدنا مرة اخرى الى المزيج القديم من شعوري الازدراء والشفقة. واقتنعنا ان اسيان مختل المدارك وان علينا ان نراعي خيبته لا ان نعتبره ندا لنا .

ولم يدعه احد بعد ذلك الى بيته . بقي يتامل البيوت والنساء والاطفال والحوانيت وعابرات الشارع بطريقته الغريبة كأن شيئا لم يحدث . بل انه هذى مرة بملاحظة متناقضة اعتبرت دليلا حاسما على جنونه ، مفادها انالبلدة ستضطرب حتما وتعمها الفوضى اذا تغيرت فيها ظاهرة طبيعية مثل حالة الباصات والحافلات : قال ان الباصات ممنوعة تحت طائلة ضبط بخمسين ليرة من ان تقبل راكبا زائدا ، فيما ينحشر الناس في الحافلات مثل البرغل في الكبة كأنهم ينفذون امر القانون . ولا يظن بان أسيان قال ذلك بسبب من روح الدعابة الموجود فيه ، فانه نحن من ظن بان الامر نكتة تعتمد على تناقض المواقف، وليس أسيان الذي دفعنا باستغراقه الجدي العميق في لفظ الجملة الى طرده من مجلسنا .

على انه ـ وقد قاطعه الوجهاء وكل من خاف على مروءته ـ اجتذب اليه افكار المثقفين عندنا واهتمامهم ، عندما قال بهدوء شارد « شروده صار حالة ملازمة لجنونه ، بل ربما كان صورة لذاك الجنون » ان الذين يتهمونه بالجنون مصابون بضمائرهم . ورأى بعض متعاطي الفلسفة منهم ان جنونه ظاهرة حضارية ، وان قدرته على اجتذاب الاطفال والبافعين اجتذابا حماسيا ، نوع من التفجير الميتافيزيكي لبراءة الانسان. وهكذا دعوه الى بيوتهم « كانت بيوتهم عالية ومعرضة للشمس » وانهالوا عليه باسئلتهم الميتافيزيكية التي تشغل بال العصر وبالهم ـ الحقيقة المطلقة والوجود والعبث والحريه والقيم وخلود الانسان ـ محاولين ان يدرسوا هذه الظاهرة ، وكان كل مافعله هو ان خيب امالهم واحدا يتلو الاخر . واقنعهمفي النهاية بأن جنونه حقيقة أكيدة . قال انه لايملك جوابا اي جواب على أضأل سؤال من أسئلتهم ووصف الاسئلة بانها تسلية بورجوازية بقالب جديد « كان هذا ماأثار روح الدعابة عند سكان البلدة » وانهم ـ هم سائلو الاسئلة ـ يتشاغلون بمعضلات يعرفون ان لا حل لها كي يظلوا متشاغلين الى الابد ،وانهم بذلكيضفون على انفسهم قيمة ويؤكدون ذواتهم بطريق السخط واليأس ، تماما كما يفعل السمان والوجيه والناس عندما يتبجحون بايمانهم الراسخ بالسيد المسيح . وهكذا قلبوا شفاههم باستسلام واعلنوا أن حالة الجنون هذه حالة ضحلة عادية لاتمتلك ابعادا جديدة ولا تفوقا عقليا، وخاصة عندما قال انهم في حاجة ماسة لمعجزة تنقذ روحهم . فأيقنوا ان لاشيء فيها شاذ وليس فيها مايؤذن بحلول خلاص أبدي . واقترح بعضهم ان يستدعي طبيبا ، لكنه اقلع عن الفكرة دونما سبب ظاهر . وهكذا نفحوه ببعض النقود والمتاع وصرفوه .

وجد أسيان نفسه وحيدا منبوذا . وضمت البلدة ذراعيها اللتين فتحتهما من قبل لتستقبلاه . وأعلن الاهلون ـ وخاصة الموظفون واصحاب الحوانيت ـ انه ليس مجنونا بقدر ماهو موتور ، وانه يحارب استقرارهم النفسي بصلف وكبرياء وغرور واستهتار ، فهو مضطرب عديم الراحة .

وفي الاسابيع التي تلت مقاطعة الجميع له سمعه حارس ليلي يخاطب كلبا من الكلاب التي تحرس قصرا بامانة عظيمة « بعد ان نبح بضراوة استنفرت بقية الكلاب » ويقول له انه ـ أي الكلب ـ يشبه سكان البلدة ، وانهم مثله في جهلهم بان اسيان واحد منهم . وعلق اسيان على نباحه بشكل اقنع الحارس نهائيا بجنونه . ولكن احد السامعين « وقع مرة فريسة نزوة من نزوات اسيان فاغتاظ غيظا شديدا لانه لم يستطع ان يصمت عن تبادل الترهات معه فامتنع عليه القول بجنونه » قال ان اسيان يطلق كل تلك الملاحظات لترويع الاهلين والانتقام منهم ، فهو مايفتأ يتحدث عن كل الامور الصغيرة ويفسرها تفسيرا خبيثا ويومي بانها امور شديدة التعقيد والاهميةوجديرةبتوقيع عقاب فظيع ، وان قد جعل الاهلين في حالة خوف دائم من ان يفسر الاخرون سلوك كل فرد بهذا التفسير المرهق ،كأنه صار وصيا على ضمائرهم . ومال كثيرون الى القول بهذا الرأي الاخير . وزادوا عليه بقولهم ان أسيان يجهد في الدخول كالجراثيم الى حياتهم ، وهو يعجز عن الخوض في قضية كبيرة لان الناس يجمعون فيها على رأي موحد . على ان البعض رفض انيعتقد بقدرة اسيان على ترويع الناس ، وقال ان الذين يظنون ذلك جماعة يرتكبون فعلا مثل هذه الاثام الصغيرة وان عليهم الاقلاع عنها كيما يكف أسيان ويسقط في يده . وثار الفريق الاول لذلك واتهم الفريق الثاني بانه ابعد ولوغا في هذه الاثام والا لما انتبه لها . وكثرت الاتهامات وتبودلت بسرعة مثيرة . فمثلا ، قال صاحب مطعم ان موظفا كبيرا راوغه في دفع ثمن الوجبة وان عليه ان يعترف بذلك . واعلنت سيدة لخلصائها سرا مفاده ان احدى السيدات ـ وذكرت اسما مشهودا له بالعفة ـ استلطفت مراهقا كان يعبر الشارع . واتهم وجيه معروف قاضي البلدة بانه غشه في لعب الورق وربح خمسين ليرة . ورد القاضي بقوله ان الوجيه يحضر السمن لزوجه مخلوطا بالشحم . واجاب صيدلي على تهمة وجهت له من طبيب بان الطبيب يستخدم أسلوب أسيان بن الضحاك في احاديثه الخبيثة عن الامور الصغيرة . وقد تبادلوا هذه الاتهامات والاسئلة بحيث كانت تسمع بها البلدة كلها . الا انهم كانوا يصمتون عندما يحضر اسيان . « لم يكن يحضر الا الى المقاهي ، فالامكنة الاخرى سدت ابوابها في وجهه » . وكانوا يحافظون على تهذيبهم والسلوك الرفيع في قبولهم ملاعبة أسيان باحدى العاب المقهى . وكانا يعتبرون صمته تقبلا لاعتقادهم بجنونه ، اذ لم يحاول الدفاع عن نفسه .

وقد اتخذت التشنيعات صبغة الانقسامات الخطيرة بسبب ظاهرة ثابتة لم يصدق احد انها تدوم برغم تفاهتها . هذه الظاهرة هي ان احدا لم يهزم أسيان قط في أية من لعبات المقهى وخاصة الشطرنج . ولقد تكتلوا ضده بكل قواهم ، ففشلوا امامه على طول الخط . وكان اذا ما انتاب احدهم الغيظ لفشله جلس ينتظر فشل اللاعب الثاني لينال منه او يتشفى به . ولاحظ أسيان ذلك فأمعن في عدم تسامحه معهم .كان احدهم يقول للاخر : لقد رأيتك تحمر وتعتكر عندما ظهر أسيان عليك ، فيجيبه ذاك : ان يدي لم ترتجف على اية حال وهي تحرك الحصان

فتخطيء مكانه . وباختصار فقد استحال المقهى الى جحيم بعد دخول اسبان . وراح شيء يزداد بروزا . شيء في نفوس الرواد وصدورهم . واتفقت جماعة منهم ان يتعاونوا حتى يهزموه في لعبة شطرنج . وفشلوا فظهر الغيظ والخيبة على وجوههم . ودفع الفشل جماعة اخرى الى نفس المحاولة ففازت بنفس النتيجة . فشلت جميع التكتلات ، وبعد كل جولة كانوا يسترخون على مقاعدهم ويمدون سيقانهم طيلة ساعات وقد نفخ الحنق رقابهم . واخيرا يتمطون على كراسيهم فينهض البعض ويسير ويبقى الاخرون للنرجيلة واصوات الراديو مطلقين بين الحين والحين أمامة او استغفارة .

والى جانب هؤلاء وجدت جماعة من الشباب قبلت ان تتعلم من أسبان اللعب . وسرعان ماصارت قادرة هي الاخرى على هزم منافسيها بالطرائق الجديدة التي اتقنتها . واستطاع قلة منها ان يسجلوا انتصارات على اسبان نفسه الذي اطلق ضحكة صافية بسبب ذلك . وازداد بقية افراد المقهى غيظا . وصار جميع الاهلين مغيظين الى اقصى حد .

اخيرا حصل الانفجار ، فان أسبان الذي حافظ على صمته حتى ذلك الحين ، تحرك بدافع من نزوته العجيبة فأعلن لاحد اللاعبين المغلوبين انه موتور ومغتاظ وان ايمانه بالسلوك الرفيع والمحبة المسيحية يتعفى في لعبة شطرنج ، وان هذا الايمان قناع لسماء تكسر بلورها الملوث .وقال ان عليه ان يلقي بين اشداق الابالسة بايمانه هذا ويعترف بانه نذل . ثم التفت الى الحضور ـ وكان بينهم السمان والوجيه والحارس والموظف وبعض المثقفين ـ فاتهمهم بلا استثناء ، المؤمنين والملحدين،بالابقاء على صورة هشة لايمان المسيحيين الاوائل ، وبأن ايمانهم بالموت كبير يجهدون للحيلولة دون انفجاره ، لكنه ينفجر انفجارات صغيرة تظهر يوميا حاملة رائحته العارية الى انوفهم المعطلة ، وانهم يذهبون للكنيسة دفعا للملل وهربا من الحقيقة العارية ، وانه لابد من معجزة لكي تنقذ ارواحهم .

وكانت قد ارتفعت همهمة استحالت الان الى زمجرة صاخبة . واعلن لفيف من الجالسين وهو يتميز غيظا بان على البلدة ان توقف اسبان عند حد وان تلجم لسانه عن مهاجمة الناس وانتقاد حياتهم .وصاح احد الكهول ان أسبان يود لو يحطم الاستقرار في كل بيت ، وان تحديقه الدائم الى الابنية لايمكن ان يفسره سوى هذه الرغبة الشريرة . وزمجر احد الموظفين قائلا ان اسبان قد لوث ضمير البلدة بتفسيراته وتعليقاته وان الصغار يتسللون دائما بايراد مثل هذه الترهات حتى مع ابائهم .

لم يتحرك أسبان برغم الغضب الذي حف به ولطمه من افواه الحاضرين ، بقي صامتا مطرقا . واندفع احدهم اليه مهتاجا وصاح : بحق السماء ! انك جرثومة تستحق القتل . وانقذف كرسي من موضعه ونهض شاب غائر العينين ورجل اسمر فضربوه وهم يتصايحون : اياك ان تحتقرنا ، انني أرى عينيك الباردتين . وانهالوا عليه بالضرب والركل والرفس والصفع واللكم ، صائحين : انه ليس مجنونا بل هو شيطان . وانقلب هو على الارض فتكوم بخط منكسر ،وبعد فترة من الهياج المحموب بجميع انواع الضرب ، صاح احد الشيوخ : كفى ايها الناس ، ان هذا لايليق بشرف البلدة ، وتوسل احد رجال الدين الذي حضر فشهد الحادثة ان ينقذوا دعوة المسيح الى الحب ويكفوا عن ضربه . وهكذا انقطع رويدا رويدا تيار الشتائم والضرب ، وانسحب الناس الى كراسيهم .

قهقه اخرهم وهو يهزه بمشط قدمه ، فيما تقدم منه احد المثقفين وقال متفتلا حوله : ولكنك لم تخبرنا ما هي هذه الحقيقة العارية ؟

فاعتدل أسبان في جلوسه وقال : لقد تلاشى ايماننا ولم يعد صلب السيد المسيح كافيا لردع النفس البشرية . ان حياتنا اليومية مطبوعة بطابع النذالة والتفاهة والغيظ والمماحكة . وعلينا ان نتخلص من هذا الطابع لتصبح الحياة ممكنة . انني اعرف انني اعمق نذالة من الجميع واكثر تفاهة وغيظا ، واني قارفت من الخطايا مايبتلعكم كلكم . لكنني من جانب اخر معذور لانني اردت ان اعرف حقيقة الانسان . اننا جميعا خطاة ، ولكننا لن نضيع وقتنا في المحاكمات واصدار عقوبات الاعدام، فالشر سيبقى بذلك شرا .

صمت أسبان ونظر الى الجميع ، كانوا يحدقون اليه مقطبين ساكنين وعيونهم تقول : أهذا يتكلم ذاك الكلام !! كأن احدا لم يضربه !

وتحدث ثانية : قلت لاخي مرة ان امرأته جميلة فاغتاظ ، وأيقن اني اشتهيتها واني نذل . ولم يكن مخطئا . كان الفرق بيننا انه قال لاخني ان الناس يبيحون في هذه الايام ان يشتهوا زوجات اخوتهم بنذالة ، واني قلت لاختي يجب ان نعترف ببساطة باننا نشتهي زوجات اخوتنا .

توفي والدي فبكينا . واعلنت اختي اننا لم نكن نشعر بوجوده حتى مات . بعد اربع وعشرين ساعة ضحكنا لنكتة . وظلت اختي ترتدي الاسود عامين كاملين . وكان الاسود يكشف في الفصول الحارة عن الصدر والساعدين والركبتين .

ذهبت مساء مع اخي الى المقهى وجلسنا . تبادلنا الاحاديث مطولا عن شق الشوارع وتزفيتها وعن ازدياد العمران . وتحدثنا عن دخل المقهى مقارنا بدخل دار للسينما ومسرح . وشكالي من ان ابنه الصغير يشنم اباه . تعبت سيقاننا من الجلوس . لعبنا بالنرد فانتابه الغيظ وانتابني الكسل . قال هل تذهب الى السينما . قلت كلا . قال لماذا. قلت لست ادري .فشرع يحدثني عن سيارة يعتزم شراءها ليوفر بذلك الوقت . ضحكت ضحكا عصبيا عاليا . استمر اخي يفكر في السيارة والوقت . اخيرا اغلق المقهى ابوابه .

وعدت فتيات كثيرات بالزواج ، وكنت مخلصا . ان الزواج عملية انسجام . لكنني حنثت بوعودي كلها . وقلت لحبيبتي بعد ان افترقنا : انت تريدين الزواج ، وليس أنا . قالت : انت ضعيف الشخصية ضعيف، ولا توحي بالاطمئنان . كان كلانا مصيبا . لم استطع ان احب بعدئذ . لاحقت الفتيات الصغيرات والنساء المتزوجات . عبثت ببراءتهن كثيرا ولم أرعو . بعضهن كن خبيثات ففهمن ولم نضع وقتا ، وبعضهن كن

التتمة على الصفحة ٦١

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب ـ بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها

المعجزة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٥ ـ

غبيات فصرن ذكيات . الا ان كل شيء في نفسي بدأ يذوب بعد ذلك ، ولم اعد استطيع ان احاكم شيئا . صرت اقبل وأقبل وأقبل . ومات عندي كل احساس بالذنب او بتجريم الاخرين . ان بلدتي تشبه بلدتكم : البيوت والسقوف والستائر والاثاث ، الحارس والسمان والوجيه والمفكر ، الجالسون في المقاهي تلطمهم طقات النرد وهم يشربون قدحا عرقا معتقدين انهم يمتعون انفسهم متعة كبيرة . وكذلك فان الحياة في بلدتنا تمضي اما هدرا او نفاقا او غيظا او هؤلاء معا كلية .

صمت أسيان وساد السكون ، كان رواد المقهى قد ازدادوا كثيرا . تقدم رجل وسأله بحذر : ولكنك لم تقل لنا ماهي المعجزة ؟

فاجاب : هل تذكرون معجزة الخبز والسمك التي اطعم السيد المسيح بها خمسة الاف نسمة ؟ لقد كان ايمانه معجزا . كان كاملا . اننا نريد لانفسنا مثل هذا الايمان كي نحقق معجزة ، معجزة ان نتخلص حياتنا من التفاهة والغيظ والنذالة .

صاح احد الحاضرين : ان الاب يوحنا مؤمن ايمانا تاما .
فطالب اخر : لماذا لايقوم بالمعجزة اذن ؟
اجاب ثالث : لم يطلبها احد منه .
قال رابع : انه لايستطيع .
سأل أسيان : أهو الاب يوحنا ناسك الدير ؟
قال خامس : اجل . لقد اعتزل البلدة منذ اربعين عاما .
قال احد المفكرين : عصرنا ليس في حاجة الى آلهة .
قال ثامن : واذ اعطانا ايمانا كاملا ؟
قال أسيان : ليس هذا هو ..
فقاطعه مفكر اخر : لكنه لن يستطيع ان يصنع المعجزة .
قال أسيان : عصرنا يستطيع ان يصنع المعجزة ، نحن .
قال عاشر : سوف نفضحه عندئذ .
قال حادي عشر : لن يستطيع .
صاحت جماعة : هيا اليه ، هيا اليه .
قال ثاني عشر : سيستطيع .
صاحت جماعة اخرى : هيا اليه حقا .

وتدافعوا من المقهى جارفين انفسهم كالسيل . وفي دجنة الغسق انطلقوا مفلتي الاعنة كانهم يتسابقون نحو كنز . انطلقوا باقصى سرعة بشربة ، يخترقون شوارع البلدة بصخب وضجة وصياح . واستفاق النائمون فخرجت رؤوسهم من النوافذ ، تساءلوا ما الخبر ، فالتقطت النساء كلمة « المعجزة » . وهب الرجال تدفعهم زوجاتهم وراء المندفعين فانطلقوا الى الاب يوحنا . ومرق الجميع في قلب الليل الى بوابة الدير .

كان الدير مبنى عتيقا لم تدخل له تزيينات جديدة ، ويغطي معظم جدرانه الطحلب الاخضر ويزحف على حجارته لون كامد أغبر . وحوله حديقة ذات ورود واشجار هرمة غير مثمرة ـ سرو ودلب وعرعار وصفصاف ـ والحديقة مسورة بجدار دائري رصاصي اللون شاهق ، زاد في الليل قتامة وعلوا . ولم يكن يشاهد شباك مفتوح ولا باب .

قرع الهاجمون البوابة قرعا عنيفا . ثم راحوا يهزونها بلا هوادة ولا توان . ولولا انها فتحت لكانت تخلعت . لقد فتحها الاب يوحنا بنفسه ، ونظر الى الجموع الهائجة ، ثم قفل مهرولا الى حيث كان . وتلاطموا وراءه واثبين حتى دخلوا صومعته .

قال الاب : يجب ان اتلو صلاتي اولا ، وبعدئذ قولوا ماتريدون .
فصرخوا : كلا ، يجب ان تصغي الينا اولا ، لقد جئنا طلبا للايمان . فاذا اعطيتنا ايمانا صلينا معك .
ولم يصغ الاب يوحنا اليهم بل هرول الى محرابه وجثا حاملا يديه على صدره .
صاح احدهم : ان مطلبنا اهم من الصلاة ، الان !
واكتشفوا فجاة طبقا يحوي بقايا خبز وسمك وحساء . وعند ذاك اندفعوا امام الاب ووقفوا يمنعونه عن الصلاة .

تقدم احد الشباب وقال : ايها الاب ، نحن انذال وتافهون وعصبيون لاننا لانملك ايمانا . وقد جئنا اليك لتفعل لنا شيئا يعيد ايماننا او يعطينا ايمانا جديدا ، هل تتنبأ لنا بذهاب النذالة والتفاهة والغيظ من حياتنا ؟ هل تتنبأ بنبي يخلص ارواحنا ، ايها الاب يوحنا ؟ ان هذا السيد .. يقول اننا نحتاج الى معجزة .

والتفت الى حيث يجد أسيان فلم يعثر عليه . الا انه مع ذلك شرح بكلمات قلائل غرض سكان البلدة . وطلب من الناسك ان يفعل شيئا .
الا ان الناسك لم يرفع ناظريه اليهم ، فوقفوا قليلا . ثم ايقنوا انه يريد الصلاة مهما كان الثمن ، وانه لاشيء يفضلها أهمية عنده .وهكذا انحازوا الى جداري الصومعة ، وأمهلوا الناسك .

كان مايزال جاثيا ، واذ انحسروا عنه نهض بوسامة وخشع امام المصلوب . رسم اشارة الصليب ، وضع يديه في حجره . هجع رأسه فوق نحره . وفي ثوان استغرقه الصمت والخشوع . وشعر الجميع انه انفصل عنهم ، وان روحه قد طارت شعاعا في أبد هلامي من النور ، وشعروا بالرهبة ، بحثت عيونهم تسأل لماذا ذهب أسيان في هذا الوقت العصيب ؟ وعادوا ينظرون الى الناسك . وما هو الا ان انهال على رف المصلى ، وغمر وجهه بالخشب الذي انتصب عليه الصليب الكبير .
ومرت لحظات رهيبات . في الجو الخفيف الضياء تختر سكون عجيب . كانت ايماءات الشموع ترسي على الجدران ظلالا واسعات ترتجف بامتدادها الطويل فوق رؤوس الواقفين . فيما غارت خلفية الصومعة في بحران الظلام ، وزجاج النوافذ العالية يتخضب بطلائع الفجر .

في هذا السبات الحار الجامح لاحظت عينان قريبتان الحساء والخبز والسمك . كانوا يختلجون وتكبر حجومهم . وانتاب صاحب العينين ذعر جليدي . وبعد تردد خافق مد يدا مرعوبة وأكل . أكل ثانية ، ولكز رفيقه ، فأكلا حتى شبعا . وتقدم ثالث ، وتقدم كثيرون . وأكل الجميع فشبعوا . ولم ينقص من الطبق شيء ولم تتغير حجوم الطعام .

فرغ الاب من صلاته فاستدار وأكل ونظر الى الحاضرين . كانوا مبغوتين وصامتين . وبغتة خر احدهم على الارض وطفق ينعر ويعول . وفي هنيهات زحف الى الناسك وانكب على ثيابه يرسم اشارة الصليب ، ويعلن اعترافه وتوبته .

نظر الواقفون الى بعضهم في ضوء الفجر ، لعل احدا يتقدم فينهار التمنع .
وصاح كهل فجاة : أيها السيد ، أيها السيد ، انت قديس . حمدا لله لقد استرددنا ايماننا ، آه ! اشعر اني بحب السيد المسيح استطيع ان احول خدي الايسر .
وركع .
قال احدهم ـ وقد تعلم كيف يغلب الكهل سابقا في الشطرنج بسبب تتلمذه على أسيان ـ : ايها الاحمق ، انتظر لترى غيرك . هل تستطيع قبل ان تركع ان تطعمنا من هذا الطبق ؟
وهتف اخر منتحبا : ايها السيد ، هل تعتقد انني عندما اذهب

الى البلدة سأكون خاليا من الشرور ؟ هل تعتقد ايها السيد ؟

فسخر الحارس الليلي ، صديق أسيان : لن تكون مطلقا ياعزيزي . « كان قد شاهده من قبل في مواقف مريبة » .

فصاحت جماعة بغضب : ان المعجزة ستغيره ، انها لاتحدث عبثا، لقد بقي الاب اربعين عاما حتى ادرك هذا السمو العظيم ، وهو ليس شيئا هينا .

انكمش الحارس الليلي .

وصاح اخرون بغضب : بلى انه شيء هين . ماذا فعل لنا ؟

فرد اخرون باحتقار : انتم انانيون ، جميع البشر . ان مليون نبي لن يفيدكم .

قال واحد ممن تعلموا انعاب اسيان لزميله : ولكن الاب في صومعته ، ونحن في شوارعنا . لينقل ايمانه الى هناك !

وسمعه احد الواقفين فهتف باشمئزاز : انك ايها الارعن تمتهن كرامة الاب يوحنا وتحتقرنا كلنا . لعمري انك تستحق عقابا .

وهتفت جماعة اخرى : ان البشر خبثاء ، ونفوسهم دائمة الحاجة الى نبي . ولكن لنركع امام مجد السيد المسيح .

قال شابان مهملا الثياب : اذا كنا كذلك فماذا فعلت المعجزة ؟

وردت جماعة بهياج : المعجزة ؟ انها لردع الساقطين . انتم تلاميذ هذا المجنون ، لن تصلكم اية معجزة .

وضرب اثنان احد الشابين للرعونة التي اظهرها في كلامه .

وقال الشاب الثاني : نحن لسنا ساقطين . احفظوا ألسنتكم .

قالت جماعة اخرى : انتما خراجان في هذه الصومعة ويجب بزلكما .

قال احدهما مخاطبا الجماعة : ليست هذه هي الوسيلة ..

ولكن شيخا انتفض فلطمه ، وهب اخرون بين مخلص وفازع ومشترك في الضرب .

واستدار الناس الى المكان فحاول بعضهم التدخل ، ولكنه نال شيئا من الضرب ، وانتشر التذمر والسخط . وعندما فشلت محاولات التسوية غضبوا وقرروا سحق المشاغبين . ولكن كثيرا من الشباب والرجال لم يقبلوا . وحاولوا ثني الاخرين ، انما عبثا . وعلا في الصومعة الضجيج والصياح واصوات الضرب . وفي هنيهات تناطحت رؤوس وتدافرت مناكب ، وهوت ايد وارتفعت اقدام ، وترنحت قامات ونهضت اخرى . وسمعت اصوات : اخرس ـ نذل ـ عيب ياقوم ـ مرة اخرى ـ خذ هذه ـ ياعيب ـ شفيت غليلي ـ نذل ـ آخ ـ موتور ...

وصاح الناسك : ايها السادة .. هذه ليست محبة السيد المسيح .. ايها الـ .. ان يسوع .. أيها الـ ..

وكان ثمة فريق لايزال عاطلا مذهولا ، فتقدم الناسك منه وصاح : ايها السادة ماذا نفعل ؟ انهم لايصدقون حتى المعجزات . ماذا نفعل ، انهم يتشاجرون ؟

ولم يستطع احد ان يجيبه . وتابع هو : ليس لمثل هذا حدثت المعجزة . انهم .. وتقدم في تلك الاونة شاب ممزق الثياب ملطخ الوجه بالدم . وشاهد الناسك فجاءه يقول منذ الفي عام يابت آمن هؤلاء بالسيد المسيح بسبب الخبز والسمك ، وصاروا بعدئذ أنذالا وتافهين . هل تريد يابت تجديد الصفقة ؟

فهتف الناسك بحزن : هؤلاء ليسوا مثل أولئك . ان الاولين آمنوا.

ولكن الشاب قال : كلا ياسيدي ، الانسان هو الانسان . ولكن انظر الى مافعلت معجزتك بوجهي . انه مالم يصنعها كل بنفسه فلن .. لقد انعزلت عنا فلماذا جئناك ؟

وانبثق رجل من العراك صائحا : آه ياسيان ، لقد انسحبت منذ البداية اذن .. فليكن اذن . فليكن كل نبي نفسه .

وتابع الرجل ثم الشاب سيرهما الى باب الصومعة بأسى عظيم ، وقد عرفنا انهما اثنان ممن تعلموا ألعاب أسيان . وكان اول من انسحب من الدير تاركا وراءه الصخب والمماحكة .

هاني الراهب

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السأم

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت